تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

بعض الظواهر فى حياتنا الأدبية :

« بين جمهرة القراء فى اللغة العربية طائفة لا ترضى عن شىء ، ولا تكف عن اقتراح ! ولا تزال تحسب أنها تفرض الواجبات على الكتاب والمؤلفين ، وليس عليها واجب تفرضه على نفسها .. إن كتبت فى السياسة قالوا : ولم لا تكتب فى الأدب ؟ وإن كتبت فى الأدب قالوا : ولم لا تكتب فى القصة ؟ وإن كتبت فى القصة قالوا : ولم لا تكتب المسرح أو للصور المتحركة ؟ وإذا كتبت للمسرح والصور المتحركة قالوا : ولم لا تحيى لنا تاريخنا القديم ، ونحن فى حاجة إلى إحياء ذلك التراث ؟

وإذا أحييت ذلك التراث قالوا : دعنا بالله من هذا وانظر إلى تاريخنا الحديث فنحن أحق الناس بالكتابة فيه .. وإن جمعت بين هذه الأغراض كلها قالوا لك : والقطن ؟ وشئون القرض الجديد ؟ ومسائل العمال ! ورؤوس الأموال ؟ وكل شىء إلا الذى تكتب لهم فيه !

وقد شبهت هذه الطائفة مرة بالطفل المدلل المعود : يطلب كل طعام إلا الذى على المائدة ، فهو وحده الطعام المرفوض .. إن قدمت له اللحم طلب السمك ، وإن قدمت له الفاكهة طلب الحلوى ، وإن قدمت له صنفا من الحلوى ، رفضه وطلب الصنف الآخر ، وإن جمعت له بين هذه الأصناف تركها جميعا وتشوق إلى العدس والفول ، وكل ما كول غير الحاضر المبذول !

سر هذا الاشتهاء السقيم فى هذه الطائفة معروف . سره أن الجمهور فى بلادنا العربية لم « يتشكل » بعد على النحو الذى تشكلت به الجماهير القارئة فى البلاد الأوربية . وإنما نعد الجمهور القارئ متشكلا إذا وجدت فيه طائفة مستقلة لكل نوع من أنواع القراءة ، وإن ندر ولم يتجاوز المشغولون به المئات .. وسنسمع المقترحات التى لا نهاية لها ، ولا نزال نسمعها كثيرا حتى يتم لنا « التشكيل » المنشود ، وهو غير بعيد !

إننا فى الواقع لا نعتقد أن هناك واجبا مفروضا على الكاتب غير الإجادة فى موضوعه الذى يتناوله كائنا ما كان .. وليس هناك موضوع يكتب كتابة حسنة ثم لا يستحق أن يقرأ ولا يفيد إذا قرئ قراءة حسنة : فالبطل القديم الذى يدرس على الوجه الصحيح هو موضوع جديد فى كل عصر من العصور ، والبطل الحديث الذى يساء درسه خسارة على القارئ والكاتب والبطل المكتوب عنه ؛ لأن العبرة بتناول الموضوع لا الموضوع ، والعبرة بأسلوب العصر الذى تتوخاه وليست بالسنة التى يدور عليها الكلام .. فالكتابة عن سنة ١٩٤٣ بأسلوب عتيق هى موضوع عتيق . والكتابة عن آدم وحواء بأحدث الأساليب العلمية أو النقدية هى موضوع الساعة الذى لا يبلى . وأولى من الاقتراح على الكتاب أن نقترح على القراء أن يقرأوا كل ما ينفعهم كيفما اختلفت موضوعاته ، لا أن نشجع « الولد المدلل المعود » على رفض كل ما على المائدة وطلب كل ما عداه » !

هذه الكلمات ليست لى ، ولكنها للأستاذ العقاد يوم أن كان يكتب للرسالة .. لقد ابتلى العقاد يومئذ بهذه الطائفة من المقترحين فكتب هذه الكلمات القيمة ؛ وابتليت أنا بها فى هذه الأيام فلم أجد فى الرد عليها خيرا من هذا الذى كتبه العقاد !

ما أكثر المقترحين حقا وما أكثر المعترضين .. قارئ يقول لى ، فى لهجة لا تخلو من السخط والاحتجاج : لقد حدثتنا عن سارتر ، وحدثتنا عن دستويفسكى ، وحدثتنا عن شو ، وحدثتنا عن بلزاك ، وحدثتنا عمن ندرى ولا ندرى .. صدقنى لقد شبعنا حديثا عن الأدب والأدباء ، وبقى أن تتجه بقلمك إلى تلك الجوانب الأخرى التى يضطرب فيها الأحياء من حولك ؛ تلك الجوانب التى تصور واقع المجتمع الذى نعيش فيه .. يا أخى عندنا فقر ومرض وجهل ، وعندنا من أخطار هذه الأمراض الاجتماعية ما هو كفيل بتحريك المشاعر وإثارة الأقلام ، فإلى متى ستظل مشغولا بغير وطنك ، ومحلقا فى غير أفقك ، وغافلا أو متغافلا عن هذه الصيحات « القومية » التى تنطلق من هذه البقعة من بقاع الشرق ، لتفتح منافذ الفكر والشعور لتلك

الصيحات « الفنية » التي تأتيك من بقاع الغرب ؟! إن كلمة عن الفقير الذي يبحث عن لقمة العيش ، أو عن الجاهل الذي يعتش عن أضواء العلم ، أو عن المريض الذي يلتمس ثمن الدواء ، لأجدى ألف مرة من فصل يكتب عن سارتر أو يكتب عن دستويفسكي أو يكتب عن برنارد شو وبلزاك !

وقارئ آخر يقول لي ، في لهجة لا تخلو هي أيضا من العجب والإنكار : يخيل إلينا أنك تحترم الأدب الغربي أكثر مما تحترم الأدب العربي ، وتفضل ثقافة الأباعد على ثقافة الأقارب ، وتقدر أولئك حيث لا يظفر منك هؤلاء بمثل هذا التقدير .. أو تعتقد أن في أدب الغرب ناقدا مثل عبد القاهر ، أو كاتبا مثل الجاحظ ، أو شاعرا مثل المتنبي ، أو باحثا مثل ابن خلدون ، أو حكيما مثل أبي العلاء ؟ يا أخي عندنا في مجال الأدب والفكر أقطاب وأعلام ، فلماذا لا تخصهم بمثل ما خصصت به الآخرين من البحث والدراسة ، ومن النقد والمراجعة ، ومن العرض الأمين الذي يبرز قيم المواهب والملكات ؟ إن في التراث العربي كنوزا تزخر بكل ما هو ثمين ونفيس ، فلماذا لا تسمح لقلمك بأن يعرج على تلك الكنوز النادرة ليرفع عنها الغطاء ؟!

وقارئ ثالث يقول لي ، في لهجة تفيض بالأسف وتعج بالإشفاق : لماذا أهملت نقد الكتب كل هذا الإهمال ؟ صحيح أن أكثر كتاباتك في النقد ، ولكننا نريد نقد الكتب بالذات .. ترى هل أمسكت قلمك عن الكتابة لأن الإنتاج الأدبي في مصر لا يرضيك؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فهل من الأمانة العلمية أن تسكت عن العيوب لأنها عيوب ، وتنصرف عن المآخذ لأنها مآخذ ، وتشغل عن رسالة النقد مع أن أساسها الأول هو توجيه الخطى وتحديد الهدف وتمهيد الطريق؟ ألا تشعر أنك تتخلى عن ميدان نرى نحن القراء ما يكتنفه من أزمة في كتابه ، ونحوس بقلمك خلال ميادين أخرى لا نشك أنت أنها تشكو التخمة التي تعقب الشبع والامتلاء ؟!

وقارئ رابع يقول لي ، في لهجة باطنها التذكير وظاهرها التأثير : لقد طرقت أبواب القصة في يوم من الأيام ، وأثبت أن ملكتك القاصة لا تقل نضجا وأصالة عن ملكتك الناقدة ، فلماذا لا تترك النقد إلى القصة بعد أن عالجت كل فن من فنونه ونفذت إلى كل زاوية من زواياه ؟ صدقني يا أستاذ أن القصة هي أكثر ألوان الأدب رواجا وأحفلها بإقبال القراء ، ومن الخير لقلمك أن يقبل على هذا الإنتاج الذي يتلاءم وشتى الميول وترضى عنه كافة الأذواق !

وقارئ خامس يقول لي ، في لهجة يتوثب فيها الخيال وتتنزى العاطفة : لست أدري لم تؤثر في هذه الأيام أن تخاطب العقول دون القلوب ؟ أين « قصة الدموع التي شابت » ، وأين « موكب الحرمان » ، وأين تلك النفحات الوجدانية التي كنت تطالعنا بها من حين إلى حين ؟ إن ومضات الفكر بما فيها من جفاف لتحوج أرض النفوس إلى قطرات من المطر ، هذه القطرات المنعشة من أدب الشعور والوجدان !

وقارئ سادس وسابع وثامن ، ورغبات متنافرة وأخرى متناقضة ، وسبحان من يرضي جميع العباد . وأقف أنا حائرا بين أنصار الأدب وبين أنصار القصة ، وبين أشياع الفن للفن ، وبين أشياع الفن للمجتمع ، وبين أصحاب الفكر وبين أصحاب العاطفة ؛ ومصدر الحيرة أنني كتبت للجميع فلم أستطع أن أرضي الجميع ، لأن كل فريق يريدني على أن أكتب وفق هواه !

لقد كتبت عن الفقر ، وكتبت عن الجهل ، وكتبت عن المرض ، وكتبت عن هموم الشباب وحيرة الشباب ، وكتبت عن القصة وفي القصة ، وكتبت عن النقد وفي النقد ، وكتبت عن أدباء الشرق وأدباء الغرب ، وكتبت في مختلف الشئون وفي أكثر الموضوعات : منها ما يتصل بالفن ، ومنها ما يتصل بالفلسفة ، ومنها ما يتصل بالتاريخ ، ومنها ما يتصل بالسياسة ، ومنها ما يتصل بالمجتمع .. ولكن المشكلة كما يصورها الأستاذ العقاد فيبدع في التصوير ، هي أن هذه الطائفة من القراء حين أشبه بالطفل المدلل المعود : « يطلب كل طعام إلا الذي على المائدة ، فهو وحده الطعام المرفوض ... إن قدمت له اللحم طلب السمك ، وإن قدمت له الفاكهة طلب الحلوى ، وإن قدمت له صنفاً من الحلوى رفضه وطلب الصنف الآخر ، وإن جمعت له بين هذه الأصناف تركها جميعاً وتشوق إلى العدس والفول ، وكل ما كول غير الحاضر المبذول » !

إن ردى على هؤلاء المقترحين والمعترضين هو أن أقول لهم اليوم كما قال العقاد لأمثالهم بالأمس : إننا في الواقع لا نعتقد أن هناك واجباً مفروضاً على الكاتب غير الإجادة في موضوعه الذي يتناوله كائناً ما كان . وأولى من الاقتراح على الكتاب أن نقترح على القراء أن يقرأوا كل ما ينفعهم كيفما اختلفت موضوعاته، لا أن نشجع « الولد المدلل المعمود » على رفض كل ما على المائدة وطلب كل ما عداه !

في محيط الشعر والشعراء:

قرأت في العدد الأخير من مجلة الرسالة الغراء ضمن تعقيباتك القيمة ، كلمة الأستاذ محمد المهدي مجذوب ، وهي الكلمة التي كتبها عن تلك المباراة الشعرية التي جعلتها بذوقك الرفيع مباراة نقدية .. لقد رأى الأستاذ — حسب ذوقه الخاص — أن الشوام أشعر من المصريين ، فكان ردك على هذه الكلمة هو أنك قلت له: « وتبقى بعد هذا كله إشارة الأستاذ الفاضل إلى شعرائنا وشعراء الشام .. أتريد مقارنة ؟ أرجو أن تنظر في شعر علي محمود طه ، وأن تعيد النظر فيما كتبته عنه من فصول ، ثم قارن أنت .. قارن بينه وبين شعر أبي ماضي ، أو بينه وبين شعر أبي شبكة ، أو بينه وبين شعر أبي ريشة » !

إن القارئ يفهم من هذه العبارة أنك تفضل علي محمود طه على غيره ممن ذكرت ، ومع إعجابي بالشاعر الخالد وبخاصة بعد أن قرأت لك تلك الفصول القيمة التي كتبتها عن فنه وعطرت بها صفحات الرسالة ؛ مع هذا فقد تذكرت أنك وضعت أبا ماضي في مكان عال من شعراء « الأداء النفسي » ، حيث قلت في العدد (٨٤٧) من الرسالة وكنت تقارن بين الشعر القديم والحديث : « وإذا قلنا الشعر العربي الحديث فإنما نعني ذلك الشعر الذي بدأت مرحلته الأولى بتلك المدرسة من بعض شعراء الشيوخ وعلى رأسهم (شوقي) وبدأت مرحلته الثانية بتلك المدرسة الأخرى من بعض شعراء الشباب وعلى رأسهم (إيليا أبو ماضي) !

إنني يا سيدي الأستاذ أقارن بين ما كتبته اليوم وبين ما كتبته بالأمس ، فأجد فارقاً كبيراً بين الكلمتين .. فبالأمس كنت تضع أبا ماضي على رأس شعر الشباب ومنهم علي محمود طه ، واليوم تقول إن علي محمود طه أشعر من هؤلاء ومنهم أبو ماضي ، فهل غيرت رأيك في شعر الشاعرين فأنصفت علي طه اليوم كما أنصفت شوقي من قبل ؟ ذلك ما أرجو معرفته . والسلام عليك ممن ينتظر كتبك الثلاثة وما يليها

« علة مرحوم» السيد حنفي الشريف

أما أنني قد غيرت رأيي في شعر الشاعرين فأود أن أقول الأديب الفاضل إن شيئاً من هذا لم يحدث .. وأما أنني قد كتبت عن أبي ماضي بالأمس واضعاً إياه على رأس شعراء الشباب فأود أن أقول للأديب الفاضل مرة أخرى إن هذا قد حدث ، وأزيد عليه أنني كنت أتوقع أن يذكرني قارئ فطن بهذا الذي كتبت، بعد أن رددت على الأستاذ مجذوب بما قد يوهم الكثيرين بأنه مناقض لما سبق أن قلت .. لقد كنت أتوقع من فطنة القراء مثل هذا التذكير لأروي هذه القصة ، إنصافاً للحقيقة وإنصافاً للتاريخ : كان شاعرنا الخالد علي محمود طه يوم أن كتبت تلك الكلمة مقارناً بين الشعر القديم والشعر الحديث ، كان رحمه الله صديقاً لي وكان على قيد الحياة .. وأمسكت بالتليفون لأتحدث إليه وهو وكيل لدار الكتب المصرية ، لأتحدث عن موضوع تلك الكلمة ولأقول له : لقد كان يجب أن أضع اسمك بدلاً من اسم أبي ماضي على رأس شعراء الشباب ، ولكن « صداقتي » لك قد ضغطت على قلمي حتى أرغمته على ألا يذكرك مع شديد إعجابه بك وعميق تقديره لك ، ذلك لأن الناس قد أبوا على أنفسهم الصداقة في مواقف النقد البريء والأحكام العادلة .. ومع ذلك فأعتقد أنني قد اخترت اسماً آخر لا يجادلني في اختياره إلا كل بعيد عن تذوق الشعر وكل منكر لمكانة الشعراء ! وأجاب الشاعر الخالد رحمه الله في صوت مخلص ونبرات صادقة : إنني أقدر أبا ماضي وأقدر شعره ، ولا أستطيع أبداً أن أعترض عليك حين تضعه في مكانه ثم لا تنس أن اختيارك لي كان كفيلاً بأن يمرضك لنوع آخر من الاتهام أعرف أنك تحاربه وتضيق به ، وهو العصبية الإقليمية وذلك حين تضع على رأس شعراء الشيوخ والشباب شاعرين مصريين !!

من هذه القصة يتبين للأديب صاحب الرسالة أن رأيي في